الهجرة إلى المدينة

عَادتْ خديجةُ رضى الله عنها بعد حصَار قُريش مريضةً مَهيْضةً ، ولزمتْ فراشها ثلاثة أيام والنبى (ﷺ) يُلازمها ويسهرُ على عَلاجها ويدعو لَهَا بالعافية ويُواسيها .

ويشتدُّ بها المرض فى ليلة غاب عنها القمر ، وتموت بين يدى رسول الله ، ويحزنُ عليها النبى حزناً شديداً ، ويتألم لفقدها أشدَّ الألم ، ويَفجَعُهُ فراقُها . . فقد كانت له نعْمَ الزوجة الواعية الوفية .

فقد آزرته فى الأوقَات الحَرِجَة العصيبة ، وأعانته بنفسها ومالها على المُضى فى الدعوة إلى الله ، ويَواسى المسلمون النبى فى زوجته ، ويمضى النبىُ فى الحياة حزيناً غريباً .

وبعد ثلاثة أشهر يمرض أبو طالب عمُّ النبى ويشتدُّ به المرض ، ويزوره النبى ويقول له : يا عمٍّ ، كلمةٌ واحدةٌ تقولونها تملكون بها العربَ وتدينُ لكم بها العَجَمُ تقولون لا إله إلا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه .

فيقول أبو طالب : والله يا ابن أخى . ، ما رأيتك تسألنا شَطَطاً .

وطمع النبى فى إسلام عمه ، . فهو الذى رعاه صغيراً ، ومنع عنه أذى قريش ، فقال أبو طالب : يا ابن أخى ، لولا مخافتى أن تظُنَّ قريش أنى أنما قلتها جزَعاً من الموت لقلتها .

ويموت أبو طالب ، ويشتدُّ حُزْنُ النبى عليه ، وتبدأ رحلة العذاب والمعاناة ويسمى النبى هذا العام بعام الحزن .

وهنالك وجدت قُريش فُرصتها في النَّيل من رسول الله ، ومن

دعوته، وأصبحتْ لا تَهابُ فيه أحداً بعد موت زوجته وعمه ، فيضع المشركون فى طريقه الأذى ، ويضعون بين كتفيه أحشاء الذبيحة وهو يُصلى ، ويضحكون ويسخرون وينطلقُ صحابى إلى فاطمة بنت النبى يُخبرها بما حدث ، فتُسرع إلي المسجد وتُزيل عن أبيها (ﷺ) ما وضعه المشركون .

ويَفْرغُ النبى من صلاته ، ويَربتُ على فاطمة ، ثم يرفعُ يديه إلي السماء ، ويرفع صوته بالدعاء قائلاً : « اللهم عليك بقريش . . اللهم عليك بقريش . . اللهم عليك بقريش » .

وإذا المشركون يتوقفون بغتة عن الضحك والهزر ، ويُصَابون بالزُعْر والخوف ، كأن الدعاء شلّ نفوسهم ، وراح النبى يدعو عليهم واحداً واحداً . . « اللهم عليك بأبى جهل بن هشام ، وعُتبة بن ربيعه ، وشَيْبة بن ربيعة وأُبيّ بن خلف ، والوليد بن عُتْبة ، وعتبة بن أبى معيط . »

ثم انصرف النبى إلي داره بِصُحْبة فاطمة .

اشتدَّ إيذاء قريش للنبى ، فخرج إلي الطائف يلتمس من أهلها النُصْرة والمنَعَة ، وأن يدفعوا عنه أذى المشركين فى مكة .

واصطحب النبى مولاه زيد بن حارثة ذات يوم ، واتجها إلي الطائف يسيران فى الصحراء حتى وصل النبى إلى قبيلة ثقيف ، وراح يدعوها إلى الله وإلى نُصْرته . وردَّه أسيادها رداً مُنْكراً وسخروا منه .

كان النبى ينتقل من قبيلة إلى أخرى فى الطائف عسى أن يجد من ينصره ويمنعُ عنه أذى المشركين ، ولكن كانت قلوبُهم قاسيةً كالحجارة أو

أشدُّ قسوةً .

فحرَّضُوا صبْيانهم على مُطاردته وإيذائه، فوقفوا له صفين فى طريقه يرمونه بالحجارةَ ، وزيدُ بن حارثة يحاول أن يَدْفع عنه الحجارة. ويُسرع النبى ليتَّقى أذى الصبيان ، ويصل هو ومولاه إلى سور حديقة، ويجلسان فى ظلّ شجرة إلتماساً للأمنِ والرَّاحة، والنبى يرى الدمَ يسيلُ من قدميه من أثر الحجارة المقذوفة.

ويشعر النبى بالمهانة والهوان، ويراه زيد بن حارثة يمسحُ دمعةً تحدرتْ من عينيه لم يستطع النبى حَبْسها ، ثم يتوجه إلى الله بالدعاء، ويرفعُ يديه ضارعاً:

«اللهم إليك أشكو ضَعْف قُوتى ، وقلّة حيلتى، وهَوانى على الناس. يا أرحم الراحمين ،أنت ربُّ المستضعَفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلُنى، إلى بعيد يتجهمنى، أم إلى عدو ملَّكته أمرى . إن لم يكن بك غَضبٌ علىَّ فلا أبالى، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تُنْزل بى غضبك ، أو يحلَّ علىَّ سخطك ، لك العُتْبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك».

وينظرُ النبى فإذا سحابةٌ تُظلله، فينظر فيها فيرى جبريل عليه السلام ينادى : «إن الله قد سمع قول قومك، وما ردُّوا عليك ، وقد بعث لك مَلَك الجبال لتأمره بما شئت . فيبدو ملك الجبال وينادى :

ـ يا محمد . . إن الله قد سمع قول قومك وما ردوا عليك ، وأنا مَلَكُ الجبال ، وقد بعثنى الله إليك لتأمرنى . إن شئتَ دمدمتُ عليهم الجبالَ ، وإن شئت خسفتُ بهم الأرضَ .

فيقول النبى ﷺ : لا . . بل أرجو أن يُخرج الله من أصْلابهم من يعبدُهُ وحده لا شريك له .

ويرفع النبى يديه إلي السماء قائلاً : اللهم اهْد قومى فإنهم لا يعلمون . . ويجيشُ زيد بالبكاء ، ويحزُّ فى نفسه ما يَراه من إعياء النبى وهوانه . كان هذا البُستان لعُتبة وشَيبة ابنى ربيعة ، وعندما رأى الرجلان النبى وفتاه وانزوائهما فى ركن من الحديقة ، أخذتهما بهما الشفقة والرحمة ودعا شيبة وعتبة غلامهما ـ كان فتى نصرانياً يُدعى عَدّاس ، وقالا له : خُذْ قطفاً من هذا العنب وقدمه إلى هذا الرجل وصاحبه .

وذهب عداس بالعنب وقدمه للنبى ، فتناوله النبىُ شاكراً له ولسيده ، ومدَّ يده قائلاً : باسم الله ـ وراح يأكلُ مع زيد بن حارثة . نظر عدّاسُ بدهشة إلى النبى وقال :

ـ والله إن هذا الكلام ما يقوله أهلُ هذه البلاد .

فقال له النبى : من أىّ أهل البلاد أنتَ يا فتى ؟ . . وما دينك؟

قال عداس : نصرانى من نَيْنوى(بلدة تقع على شاطئ دجلة)

فقال النبى : من قرية الرجل الصالح يونس بن متَّى؟

عداس : وما يدريك ما يونس بن متى؟

النبى : ذاك أخى ، كان نبياً ، وأنا نبى . وقرأ عليه النبى من القرآن ما فيه قصة يونس . فأخذ عداس يُقَبل رسول الله بفرحة ، يُقبل رأسه ويديه وقدميه .

وهنا يلمحه عُتبة وشَيبة صاحبا البُستان ، فيُصابان بالذُّهول والدَّهشة ، ويخاطب أحدهما صاحبه قائلاً : لقد أفسد والله علينا غلامنا . وانصرف النبى وفتاه ، صابراً وانياً حزيناً .

حتى إذا وصل إلى مكان يُسمى نخلة ، فى طريقه إلى مكة ، قام من الليل يصلى ويتلو آيات من القرآن الكريم ، وَفَدَ عليه نَفَرٌ من الجن ممن يتبعون سيدنا موسى عليه السلام ، فلما حضروه قالوا لبعضهم : أنْصِتُوا .

وأخذوا يستمعون القرآن بانتباه وتدبر ، فلما فرغ النبى ﷺ من صلاته ومن قراءته انصرفوا إلي قومهم قائلين :

﴿ يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

أمضى النبى فى الطائف عشرة أيام يعرضُ عليهم الإسلام ، ويطلبُ منهم حمايته حتى يُبلغ رسالة الله، لكنهم رفضوا .

وفى الطريق كان النبى يفكر فى وسيلة يدخُلُ بها مكة ، ويتَّقى بها أذاهم بعد أن وصلهم نبأ ذهاب النبى إلي الطائف ، يستنصر بأهلها ويستجير بهم .

وأرسل النبى إلي المُطعم بن عَدىّ يخبره أنه سيدخل مكة فى جواره، فأجاب إلي ذلك وقَبل ، وتسلَّح هو وبنوه وخرجوا إلى الكعبة مع رسول الله، فلما رآه المشركون قالوا : يا مُطعم . . أمُجير أنت أم تابع؟

فنادى مطعم قائلاً : يا معشر قريش . . إنى قد أجرت محمداً فلا يَهْجُه منكم أحد .

وصلَّى النبىُ فى الكعبة ركعتين ، ثم انصرفَ إلى بيته فى حراسة مطعم وبَنيه ، واستمرَّ النبى فى دعوته ، فكان يخرج إلى القبائل الأخرى ـ غير قريش ـ ويعرضُ عليهم الإسلام ويدعوهم إلي الإيمان بالله وحده وترك عبادة الأوثان ، وكان يعرضُ عليهم نفسه ليحموه ويمنعوا عنه إيذاء

قريش ، وكانت هذه القبائل مثل قريش . . تَصدُّ عنه وتردُّه أقبحَ ردّ .

كانت قوافلُ الحُجاج تَفدُ إلى مكةَ فى مَوْسم الحج من كل ناحية . وراح النبى يَعْرضُ دعوته علَى القبائل الوافدة ، وفى هذا العام جاءت قافلة من المدينة المنورة فيها ستة نَفَر من قبيلة الخزرج ، ودعاهم النبى ﷺ إلى الإسلام وإلى معاونته فى تبليغ رسالة ربه . فقال بعضهم لبعض لما رأوا عليه ملامح الصدق :

ـ إنه النبى الذى كانت تَعِدُكم به اليهود ، فلا يسبقنكم إليه ، فآمنوا به وصدَّقوه .

كان العرب فى المدينة على معرفة بعقيدة التوحيد من خلال مجاورتهم لقبائل اليهود ، وكان اليُهود يحدثونهم فى أمور الدين ، وفى عقيدة التوحيد ويعيبون عليهم عبادة الأوثان ويبشرونهم بمجىء نبى .

قال الرجال للنبى : إنا تركنا قومنا بينهم من العداوة ما بينهم ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجلٌ أعزُّ منك . . ووعدوا النبى المقابلة فى المَوْسم المقْبل .

فلما كان العام المقبل ، وفَد اثنا عشر رجلاً من يَثْرب فى مَوْسم الحج بعضهم من الأوس وبعضهم من قبيلة الخزرج ، والتقى بهم النبى عند العقبة وأعلنوا إسلامهم ، وبايعوا رسول الله على ألا يُشركوا بالله شيئاً ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا أولادهم ولا يأتون ببُهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم ولا يَعصُونه فى معروف ، فإن وَفُّوا فلهم الجنة . وإن غَشُّوا فأمرهم إلى الله إن شاء غفر وإن شاء عذب .

وأرسلَ معهم سفيراً هو مُصْعَب بن عُمير ليُسمعهم القرآن ويعلمهم أمور الدين . وهناك فى المدينة كان الإسلام ينتشر ، وأقام مصعبُ بن عُمير بين المسلمين يدعو إلي الإسلام فدخل الناس فى الدين الجديد أفواجاً ، وعاد مُصْعب إلى النبى بعد مُدَّة يقصُّ عليه خبر المسلمين فى المدينة ويخبره أن وفوداً من المسلمين فى المدينة سوف تصل إلي مكة فى موسم الحج .

وجاءت وفود العرب من يثرب ومعهم الذين آمنوا بدعوة الإسلام ، وذات ليلة نام القوم فى رحالهم ، حتى إذا مضى ثُلثُ الليل تسلَّلَ الرجالُ واحداً واحداً ، وخَرجوا يستخفون من قومهم حتى وصلوا إلى الشِّعْب عند العَقَبة ، وكانوا ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان وجلسَ الوفدُ ينتظرون رسول الله .

وفى عَتْمة الليل جاءَ رسولُ الله ومعه عمُّه العباس بن عبد المطلب ـ وكان يومئذ لا يزال على دين قومه ـ فلما جلسوا ، قال العباس :

ـ يا معشر الخزرج . . إن محمداً حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا فهو فى عزة من قومه ومَنَعة من بلده ، وإنه قد رأى الانحياز إليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك . وإن كنتم ترون أنكم مسلِّمُوه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن دعوه بين عشيرته ، فإنهم له عَوْنٌ وسَنَدٌ .

قال كبيرهم (البراء بن معرور) : والله لو كان فى أنفسنا غير ما ننطق به لقلناه ، ولكنا نريد الوفاء والصدق وبذل نفوسنا دون رسول الله .

ثم قال لرسول الله : خذ لنفسك ولربك ما أحببت .

فقال الرسول : أشترط لربى أن تعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئاً، ولنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم متى قدمتُ عليكم .

فقال رجل منهم : يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال عهوداً ، وإنا طهوها فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتتركنا ؟

فتبسم النبى ﷺ وقال : بل الدَّمُ الدم ، والهَدْمُ الهَدْمُ . . أنا منكم وأنتم منى ، أحاربُ من حاربتم وأسالم من سالمتم .

وأمرهم النبى أن يختاروا من بينهم إثنى عشر نقيباً ، فأخرجوا منهم النقباء تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، فقال لهم النبى : أنتم كُفَلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم وأنا كفيل على قومي .

قالوا : نعم .

وعندما اجتمعوا لبيعة النبى ﷺ ، وقف العباسُ بن عبادة وقال :

ـ يا معشر الخزرج أتدرون عَلامَ تبايعون هذا الرجل؟

قالوا : نعم .

قال : أنتم تبايعونه على حَرْب الأحمرَ والأسودَ من الناس، إن كنتم تَرون أنه إذا نُهكت أموالكم وأشرافكم أسلمتموه ، فمن الآن فَدعُوهُ وهذا والله خزى فى الدنيا وفى الآخرة .

وإن كُنتم ترون أنكم مُوفونه على مادَعاكم إليه ، فخذوه فهو والله خيرُ الدنيا والآخرة .

قالوا : بل نأخذهُ على مُصيبةِ الأموالِ وقَتْل الاشَراف ، فما لنا يا رسول الله إن نحن وَفَّينا بذلك؟

قال : الجنةُ .

قالوا : ابْسُط يدكَ نُبايعك .

فبسط النبى يده وبايعوه ثم انفضُّوا إلى رحالهم .
ولم يكد الصبحُ أن يطلع حتى تسرَّب نبأ البيعة إلى بعض أشراف قريش فانطلق رجال من قريش ودخلوا شعْب الأنصار وقالوا :
ـ يا معشر الخزرج بلغنا أنكم جئتم لصاحبنا تخرجوه من أرضنا وتبايعوه على حربنا ؟
قال بعضهم الذين لم يحضروا البيعة ولم يعرفوا عنها شيئاً : والله لم يحصل منا شىء فى ليلتنا هذه ، وقال كبيرهم (عبد الله بن ابىٍّ) : ما كان قومى ليفعلوا شيئاً من ذلك دون أمرى .
ورجع أشراف قريش وهم مُتأكدون من أن شيئاً من ذلك قد حَدَث ، وأن فى هذا خطورة كبيرة على حياتهم وكيانهم .
انتهى موسم الحج وعاد الأنصار إلى المدينة أكثر عزماً على إعلان إسلامهم ونُصرة النبى وأيقنوا أن محمداً هو النبى الذى طالما حدثتهم عنه اليهود .
وفى مكةَ كان المسلمون يُعانون الاضطهادَ والإيذاء والتَّنكيل ، وأدركتْ قُريش أن هناك خطورةً من وراء البيعة التى تمتْ بين النبى والأنصار ، وأن فيها تهديداً لهم ولتجارتهم .
وأذنَ النبىُ ﷺ لصحابته فى الخروج إلى إخوانهم الأنصار فى يثرب حتى يَجعل لهم مَخْرجاً من هذا العُسر ، وتسلَّل المسلمون لوَاذاً ، فُرادى وفى مجموعات صغيرة تاركين ديارهم وأهلهم وما شقَّ حَمْله من مال ومتاع .
ورأتْ قُريش تسلل المسلمين من ديارهم وفرارهم إلى المدينة المنورة ، فراحت تحول بينهم وبين الرحيل ، واستطاعت حَجْزَ المستضعفين ممن لا

حَوْلَ لهم ولا حيلة، ولا كثير مال ، ولا سَنَد لهم من عشيرة وأهل .

وكان أبو سلمة المخزومى أول المهاجرين ولحقته زوجته أم سلمة بعد مُدَّة ، وعندما أراد صُهَيب بن سنان الرومى الهجرة وقفتْ له قريش لتمنعه وقالوا : أتيتنا صُعلوكاً فقيراً، حتى كثر مالك وبلغت ما بلغت من الغنى، والآن تريد الخروج بمالك ونفسك ، والله لا يكون ذلك .

فقال لهم صُهَيب : أرأيتم إن جعلتُ لكم مالى أتخلون سبيلى؟

قالوا : نعم .

فقال : إنى قد جعلت لكم مالى . . هو فى مكان كذا .

فخلوا سبيله ، وانطلق إلي المدينة فاراً بدينه من الفتنة ، شاكراً لله .

وبلغ ذلك رسول الله ، فاستبشر وقال : «ربح البيع أبا يحيى» ونزل جبريل عليه السلام على النبى بقرآن : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ .

وعندما أخبره المسلمون بما قاله النبى صلى الله عليه وسلم عنه، وبما نزل فيه من آيات تُتلى ، بكى فَرَحاً ، وسجد لله شُكراً.

وراح أبو بكرً الصديق يستأذن النبى فى الهجرة، ويقول له النبى ﷺ :

ـ لا تَعْجَل . . لعل الله يجعلُ لك صاحباً .

وأدركَ أبو بكر أن النبىَّ ينوى الهجرة ، ولكنه كان ينتظرُ بلهفة الإذْنَ من الله ، فاشترى راحلتين وراح يُعدهما للهجرة، وهو فى شوقٍ إلي ذلك ويتمنى أن يخصه النبى بشرف الصُّحْبَة .

وعمر بن الخطاب تلفَّتَ حوله فرأى مكة قد خَلَتْ من المسلمين إلا القليل . الكل هاجر فى سبيل الله ، وفرَّ بدينه، وخلَّف وراءه الأهل والمال والوطن .

وبرَّح به الشوق إلى اللَّحاق بأصحابه المسلمين فى المدينة ، فأعدَّ راحلته وتقلَّد سيفه وحمل قَوْسه وسهامه ومضى إلى الكعبة فى وَضَحِ النهار، وعَقَل راحلته هناك على مرأى من القوم الذين اجتمعوا فى فناء الكعبة ، ثم طاف بالكعبة سبعاً ، وصلى ركعتين، وتوجَّه نحو القوم وهو يرفع سيفه شاهراً ويصيح بصوته القوى :

ـ شاهتْ الوُجُوه . . أيها القوم من أراد أن تَثْكلُه أمه أو يُيتم ولده، أو تُرمَّل زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى . وأمسكَ لجام راحلته وانطلق بها يخترق الصحراء فى طريقه إلى المدينة .

ونظر القوم بعضهم إلي بعض فى وُجُومٍ ولم يتكلم أحدٌ ، ولم يَبْرح مكانه .

لم يَبْقَ فى مكة إلا القليل ، منهم أبو بكر وعلى وزيد بن حارثة وبعض المستضعفين الذين حبسهم سادتهم عن الهجرة .

وخشى سادة قريش من أن يهاجر محمد ﷺ ويلحق بأصحابه، حتى إذا قوى واشتد بأسُه عاد ليحاربهم فى عُقْر دارهم ، فاجتمعوا فى دار الندوة وتشاوروا فى الأمر ، فرأى بعضُهم حَبْسَه، ورأى آخرون نفيه خارج مكة، ووقف أبو جهل واقترح عليهم أن يأخذوا من كل قبيلة شاباً قوياً فتياً ثم يُعطى كل واحد منهم سيفاً ، ثم يضربوه بسيوفهم ضَرْبَة رجُلٍ واحد فيقتلوه، وبذلك يتفرق دمه فى القبائل ، ولا تستطيع قبيلته بنو عبدَ مناف حرب هذه القبائل جميعاً والثأر له، ولا يبق لهم إلا الدية .

وبذلك تستريحُ قريش من شرِّه ، وينفضُّ الناسُ من حوله . واستحسنَ

القـومُ رأيه ، واتفـقـوا على تـنفـيـذ هذه الخُطة فى تلك الليلـة ، وأرسل الله تعالى جبريل عليه السلام إلى النبى يخبره بما دبرته قريش ويأمره بالهـجرة وألا يبيتَ ليلته فى فراشه . فذهبَ النبى إلى على بن أبى طالب وأخبره بأمر الهـجرة وكلَّفه بَأن يبيتَ فى فراشـه هذه الليلة ، وأن يؤدى الودائع إلي أصحابها ـ ثم ذهب النبى ﷺ إلى أبي بكر فى داره وقت الظهيرة . . كـان الحرُّ شـديداً، والناس فى ديارهم ، والطرقُ خـاليةً ، وعنـدما رأى أبو بكر النبى طار فرحا ، فقال له النبى : أخْرِج من عندك ، فإنى أريد أن أُخبرك بأمر مُهِمٍّ .

قال أبو بكر : يا رسول الله ليس فى الدار إلا ابنتاى عائشة وأسماء ، وما ذاك الأمر فداك أبى وأمى؟

قال النبى : إن الله قد أذن لى فى الهجرة .

تهلّل وجه أبو بكر بشْراً وقال : الصُّحْبةُ يا رسول الله .

قال النبى : الصُّحبةَ .

عانق أبو بكر النبى وهو يبكى من الفرحة . ثم قال : يا نبى الله هاتان راحلتان كنتُ قد أعددتهما لهذا الأمر .

وأعد النبى ﷺ خُطةً للهجرة ، فاستأجر هو وأبو بكر رجلاً يُدْعى عبد الله بن اريْقط » ليكون لهما دليلاً على الطريق إلى يثرب ، وكان حينئذ مُشْركاً ، لكنه كان برغم ذلك وفيّاً أميناً ، فحفظ السِّر، ورعى الراحلتان حتى يحين موعد لقائه بالنبى وصاحبه .

وأقبل المساء ، وبات فتيان قريش حول دار النبى يترصدون خروجه ليقتلوه بسيوفهم وبات على بن أبى طالب فى فراش النبى وتغطى ببردته .

وتمر الساعاتُ وئيدةً فى هَدْأة الليل ، الفِتْيان ينظرون من خَصَاص

الباب فيرون شخصاً نائماً، فيطمئنون ويحسبون أنه النبى لم يُغادر فِراشَهُ.

ويفتح النبى الباب، ويخرجُ من البيت وهو يَتْلُو آيات من القرآن، واغْشى الله أبصارهم فهم لا يُبْصرون، ويرفع النبى حفْنةً من التراب ويضع على رأس كل رجل منهم قَدْراً يسيراً ويمضى وهوَ يُردد قول الله تعالى: ﴿جَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾.

ويذهبُ النبىُ إلى دار أبى بكر الصديق، ويقول: هيا يا أبا بكر.

ويوصى أبو بكر ابنه عبد الله بأن يستمع إلى ما يقوله الناس ثم يأتيهم بأخبار قريش فى المساء فى غار ثَوْر، وأن يأمر مولاه عامر بن فُهيرة بأن يرعى غنمه فى الصحراء نَهاراً، ثم يُريحها فى المساء أمام غار فى جبل ثَوْر.

وانطلقَ النبى وصاحبهُ فى طريقهما إلي غار ثور فى طريق وَعْر، وفى عَتْمة الليل تَحْرُسهما عناية الله، وانْجَلى الليلُ وجاء الصباحُ والْفتية جالسَون بسيوفهم أمام دار النبى، ينتظرون خروجه. وينهضُ علىّ من فراشه، ويراه الفتيةُ فيطيرُ صَوابهم ويدركوا أن محمداً قد فرَّ من أمامهم.

وأحاطوا علياً يسألونه بغيظٍ: أين محمد. وأين رَحَل؟

فيقول: لا أدرى.

وانطلقوا فى كل إتجاه يبحثونَ عنه ويسألون عنه، وذَهب أبو جهل مع نفر من المشركين إلى دار أبى بكر وطَرَق البابَ بعُنفٍ، وخَرجْت أسماءُ ابنتهَ فسألها:

ـ أين أبوك يا بنت أبى بكر؟

قالت أسماء : لا أدرى .
فرفع يده الغليظة ولطَمَها على وجهها ؛ فأسقط قرْطَها وأسَال دَمها وجُنَّ جُنون أبي جهل وهو يقول : قد فرَّ أبو بكر مع محَمد .
كان النبيُ ﷺ وأبو بكر قد وَصَلا إلى غار ثَوْر واختبآ فيه . بينما كانت قُريش تشتعل غيظاً ، وتسعى بحثاً عن النبى ، وكان عبد الله بن أبى بكر يخرج إلى الطرقات يستمع إلى ما يقوله الناس . ثم يتسلل فى المساء إلى غار ثور فيخبر النبى بما تتحدث به قريش .
وكانت أسماء بنت أبى بكر تُعدُّ طعاماً للنبى وأبيها ، وبينما هى تبحثُ عن شيء لتربط به الزَّادَ ، فلا تجدُ ، فَتشقُّ نطاقها نصفين ، وتربطُ بأحدهما الزاد وتخرج خُفْية إلي غار ثور حيث يبيَتُ النبىَ ﷺ وصاحبه .
وكان عامر بن فُهيرة يرعى غنمه بالنهار فى الصحراء ، ثم يُريحها أمام غار ثور وكان أبو بكر يخرجُ فى المساء يحلبها ويسقى الرسولَ لبنها ثم يشربُ منها . وتمرُّ الأوقاتُ العصيبة ببطء ووَهَنْ ، وقريش تشتعل جُنوناً وغيظاً .
أين ذهبَ مُحمدٌ ؟ . . وكيفَ خرجَ من بيننا ولم يَرهُ أحدٌ ، أو يَشْعر به أحد ؟! وانطلق نَفَرٌ من المشركين يتتبعون آثار الأقدام ، قالوا : هذه هى آثار أقدام محمد وصاحبه .
وتتبعوا الأثر فى الرمال حتى وصلوا إلى جبل ثَوْر ، كانت الأغنامُ قد اخْفت قليلاً بعض الآثار . وأمام الغار وقف المشركون حيث قادتهم آثار الأقدام . وينظر المشركون إلى باب الغار . . فيجدون عليه نسيج عنكبوت ، وعلى جانبى الغار رقدتْ حمامتان على بيضهما فى سكينة وأمان .
وفى الغار كان أبو بكر يرى أقدام المشركين يفصلها عنهما بضع

خطوات ويسمع حديثهم . . كان أبو بكر يرتجفُ خَوْفاً ويهمس للنبي (ﷺ) :

يا رسولَ الله ، لو نَظَرَ أحُدهم تحت قدميه لرآنا .

فيقول له النبي مُطَمْئناً : يا أبا بكر ما ظَنُّك باثنين اللهُ ثالثهما . . يا أبا بكر لا تخف إن الله معنا .

قال المشركون لبعضهم : لو دخل أحدٌ هنا لما بقى نسيجُ العنكبوت على الباب ، ولرُوِّعتْ الحمامتان وتركتا عُشيهما .

وتمضى ثلاثة أيام وقريش تدور في كل اتجاه ، وتسير في كل ناحية بحثاً عن النبي . ويئست من العثور على رسول الله ﷺ في مكة أو حولها ، وأيقنت أنه أفلت منها وهو الآن في طريقه إلى المدينة . فأعلن أشراف قريش عن مكافأة كبيرة لمن يأتى بمحمد أسيراً أو قتيلاً .

وطَمعَ سُراقةُ بن مالك في المكافأة فركب فرسه وحَملَ رُمحهُ وانطلق في الطريق الذى سار فيه النبي وأبو بكر .

وجاء عبد الله بن اريقط في موعده عند المساء ، ومعه رواحله ، وانطلق الركب يحمل زاداً يسيراً أتت به أسماء بنت أبى بكر .

توجَّهَ النبي إلى مكة وهو يودعها بنظرة دامعة ويقول : «والله إنى أعلم أنك أحب أرض الله إلى الله ، ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت» وكان أبو بكر يتلفت حوله خشية أن يراهما أحد من قريش ، وكانا يسيران في طريق غير مألوف ، وفي قيظٍ مُحْرق تتلظى له رمال الصحراء .

وبغتةً لمح أبو بكر شَبَحاً يريد أن يَلْحَق بهما ، فلما دنا عَرَفهُ أبو بكر وقال للنبي :

ـ هذا سُراقة بن مالك يتبعنا .

وفجأةً كَبَا الفرسُ ، ووقع سراقة ، ثم نَهَض بسرعة وراح يتبعهم أيضاً ، حتى إذا اقترب منهم سَاخَتْ أقدامُ الفرس فى الرمال ، فنادى سُراقة بالصَفْح والأمان وعَرَض عليهما الزاد .

فقال له النبى : لا حاجةَ لنا . . عَمِّ عنا الطَلَبْ .

وعاد سُراقةُ من فَوْره يَرُدُّ كل من يطلبُ رسولَ الله ، وأيقَن سراقة أن محمداً مُؤَيدٌ من السماء ، وأنه فى رعاية ربه .

ومرَّ الركبُ بأعرابية كريمة تُدعى (أم مَعْبَد) كانت تجلس أمام خيمتها ، اعتادت أن تُطعم وتسقى من يمرُّ بها من القوافل ، ونزل النبى وأبو بكر عندها يلتمسون طعاماً يشترونه منها .

فقالت لهما : والله ما عندى غير شاة هزيلة . . فمسح النبى ضَرْعها ودعا الله لها ثم حلبها . فكانت تُدرُّ لبناً غزيراً ، فشربتْ المرأةُ حتى ارتوتْ ، وشرب أبو بكر حتى ارتوَى ، ثم شرب النبى وشكر المرأة ، وترك لها لبناً فى وعاء .

وانطلق النبى وصاحبه يواصلان السَّيْر إلي المدينة . كان المسلمون فى المدينة يترقبون بلهفة مجىء النبى ، بعد أن سمعوا أنه خرج من مكة ، فكانوا يقفون بظاهر المدينة ، وعلى المرتفعات ينتظرون طلعته .

وذات يوم صاح رجل يهودى وقد لمح الرَّكْبَ يقتربُ : يابنى قيلة . . هذا صاحبكم قد جاء ؛ فأقبل الناس سِرَاعاً رجالاً ونساءً وصبية يستقبلون رسول الله بالتكبير والأناشيد والبهجةَ .